المحاضرة رقم06: مقاومة أحمد باي1830-1848

1. مولده ونسبه ونشأته:

ولد أحمد باي عام 1784م في أســـرة كرغلية من بايلك قســـنطينة، حيث كان والده محمد الشـريف وجده أحمد باي القلي. نشـأ أحمد يتيمًا بعد وفاة والده بطريقة مأسـاوية، وقد اتسـمت شـــخصـــيته بذوق رفيع وقوة، مع غياب للأحاســـيس والعواطف، وهو ما اكتســـبه من بيئته الصحراوية. تمتع بصفات الرجولة والمروءة والشهامة، وذلك بفضل تربيته بين أخواله، مما جعله يتشكل في قالب صحراوي مميز.

يُعتبر أحمد باي آخر بايات مدينة قســـنطينة، وهو شـــخصـــية بارزة في تاريخ المقاومة الجزائرية. بالإضـــافة إلى ذلك، أولى اهتمامًا كبيرًا بالجانب الثقافي والعمراني للمدينة، حيث كان رجل علم وثقافة. عمل على تحويل قســـنطينة إلى حاضـــرة تنافس عاصـــمتها الجزائر ووهران، وتميز عمرانها بالطابع الإســـلامي الأصـــيل. كما ازدهرت فيها المدارس وعمّ فيها العلم، حتى باتت تضاهي تونس والقاهرة في المجال العلمي، وفقًا لتقارير فرنسية.

عقب وقوع الاحتلال الفرنسي، سارع الباي إلى إعادة تنظيم صفوفه بإنشاء جيشٍ نظامي وتدريبه على فنون القتال. كما شرع في ترميم أسوار قسنطينة وتوزيع المدافع في مواقع استراتيجية، يقيناً منه بأن الأطماع الاستعمارية ستستهدف مدينته لا محالة. ورغم محدودية العدد – حيث قُدرت قواته بمئة خيمة، في كل منها ثلاثون جندياً – إلا أنه عوض ذلك الإعداد المحكم وتوفير كافة المؤن والعتاد الحربي. ولم يكتفِ بالجانب العسكري، بل عمل على تعبئة الجماهير القسنطينية للدفاع عن البايلك، وحصّن قواته داخل ثكنات وأبراج دفاعية موزعة داخل وخارج أسوار العاصمة قسنطينة.

2. مراحل مقاومة أحمد باي

انقسمت المسيرة النضالية لأحمد باي إلى مرحلتين محوريتين، شملت مواجهات عسكرية ودبلوماسية مكثفة:

- **المرحلة الأولى (1830م – 1837م):**

يُعد أحمد باي من طليعة المدافعين عن الجزائر العاصمة إبان الغزو الفرنسي الأولي؛ إذ خاض بتكليف من "الداي حسين" معارك ضارية كبدت المستعمر خسائر فادحة. وعقب سقوط مناطق استراتيجية في العاصمة، قرر الانسحاب نحو قسنطينة لتنظيم صفوفه. وهناك، واجه محاولة انقلاب قادها العنصر التركي لتنصيب "حمود بن شاكر" بدلاً منه، لكنه استطاع بحنكة احتواء الفتنة واستعادة زمام المبادرة، حيث أعاد بناء جيشه معتمداً بشكل كلي على العناصر الجزائرية الخالصة لمجابهة العدو.

- **الحملة الفرنسية الأولى على قسنطينة (1836م):**

بعد إحكام قبضتهم على الساحل، تطلعت القوات الفرنسية نحو بايلك قسنطينة، نظراً لمكانته الاقتصادية كأغنى الأقاليم وموقعه الاستراتيجي الذي يفتح الطريق للسيطرة على الشرق الجزائري. جهّز القائد الفرنسي "كوزيل" حملة ضخمة قوامها 8700 جندي، طامحاً لتعويض

خســـائره أمام الأمير عبد القادر. تحركت القوات من قالمة في 15 أفريل 1836م، ليواجهها أحمد باي بتكتيك "الكر والفر" المنهك. انتهت المعركة بهزيمة مدوية للاحتلال، زعزعت أركان جيشه وصدمت قادته بمدى صلابة المقاومة وبسالة الجندي الجزائري.

✓ **الحملة الفرنسية الثانية على قسنطينة (1837م):**

سـعياً لغسـل عار الهزيمة الأولى، حشـدت فرنسـا كامل طاقاتها البشـرية والعسـكرية لاقتحام بايلك قســنطينة مجدداً. ولضــمان تركيز قوتها الضــاربة في جهة واحدة، عمدت الســلطات الاستعمارية إلى توقيع "معاهدة التافنة" مع الأمير عبد القادر في 30 ماي 1837م؛ كان هدفها من هذه الهدنة تحييد الجبهة الغربية تماماً للتفرغ لغزو الشرق والقضاء على مقاومة أحمد باي.

في الســادس من أكتوبر عام 1837م، بلغت الجيوش الفرنســية تخوم قســنطينة تحت قيادة "دامريمون"، الذي سعى لتلافي ثغرات الحملة السابقة؛ فشن هجوماً مزدوجاً من جبهتين لإنهاك دفاعات جيش أحمد باي. وبعد حصــــار مرير اســـتمر ثمانية أيام، نجحت القوات الغازية في اقتحام المدينة واحتلالها، رغم الصمود الأسطوري والمقاومة العنيفة التي أبداها أهالي المنطقة.

➢ **المرحلة الثانية من المقاومة (1837م – 1848م):**

لم يثنِ سقوط الحاضرة عزم أحمد باي؛ إذ رفض الاستسلام وواصل تعبئة الأنصار وبناء القوة العسكرية لاسترداد ما فُقد. سعى الباي إلى توطيد تحالفاته مع القبائل المجاورة لتعزيز صفوفه بالمقاتلين، تزامناً مع تعزيز الاحتلال لتواجده العسكري بفرقة بلغت 1400 جندي. ومع توالي الضغوط العسكرية، عُرض عليه الاستسلام والرحيل إلى فرنسا، وهو ما رفضه جملة وتفصيلاً، مقرراً الانسحاب بقواته نحو الصحراء لتأمينها. وفي تلك الأثناء، استنجد به خاله "بوعزيز بن قانة" لقتال خصمه "فرحات بن السعيد" قبل التوجه لقتال الفرنسيين، إلا أن هذه الخطوة كانت شركاً أودى بمشروعه؛ فبينما كان الباي يسعى لجمع كلمة القبائل، انحاز خاله لصفوف المحتلين طمعاً في بسط نفوذه على أقاليم الصحراء.

استمر أحمد باي في تنقله بين المناطق محاولاً إحياء شعلة المقاومة، لكن تضييق الخناق والحصار الفرنسي حال دون تحقيق ذلك. وفي نهاية المطاف، وتحت وطأة الحصار، وافق على الاستسلام شريطة أن يتم ذلك في سرية تامة. وفي 5 جوان 1848م، سلم نفسه في مدينة بسكرة، ليُنقل بعدها إلى الجزائر العاصمة حيث وُضع تحت الإقامة الجبرية. ورغم رغبته في الهجرة إلى الديار المقدسة، إلا أن سلطات الاحتلال منعته من ذلك، ليظل في العاصمة حتى وافته المنية في مارس 1850م عن عمر يناهز 65 عاماً، ووُري جثمانه الثرى في مقبرة "سيدي عبد الرحمن الثعالبي."